



بدت خيبة الأمل طاغية على ردود أفعال معظم نشطاء المعارضة السورية، إزاء محدودية أهداف الضربة الثلاثية الغربية ضد موقع لتصنيع الأسلحة الكيميائية في حيي دمشق وحمص، وكانت مشاعر هؤلاء الذين رفعوا سقف التوقعات عالياً مفعمة بالإحباط واليأس والمرارة، إثر النتائج الهزلة، والمفاعيل الضئيلة، لتصريحات الرئيس الأميركي، وتهديداته المباشرة لنظام الأسد بدفع ثمن باهظ على فعلته المنقولة بالصوت والصورة من مدينة دوما، حتى إن بعضها من هؤلاء المخذولين اعتبر الضربة بمثابة عملية تلميع لصورة الأسد، وتعزيز لمكانته الداخلية، وبالتالي فإن الضربة، والحالة هذه، تكون قد حرفت عكس ما كان مأمولأً منها تماماً.

كان تشخيص الخائبين إزاء الضربة الانتقائية في محله تماماً، وكانت مقارباتهم الأولية لحصيلتها الموضعية، العسكرية منها والسياسية، صحيحة إلى أبعد الحدود، فهي لم تترك أي أثر يعتد به في الميدان، ولم تغير شيئاً في قواعد اللعبة الجارية، أو تبدل أي مدخل في معادلة الحرب القائمة، كما أن خسائرها الطفيفة للغاية، سواء أكانت في الأرواح أو في الممتلكات، تبرر الشكوك حقاً في النوايا الغربية الكامنة، وتثير الأسئلة المشفوعة بالفلق حيال الأهداف الحقيقة التي صُممّت في غرف العمليات، كي تأتي صغيرةً وسطحيةً، وقاصرة عن الوصول إلى نتائج مهمة، كسابقتها في مطار الشعيرات قبل عام مضى. وبالفعل، لم يخسر الأسد أصولاً نوعية أو ممتلكات ذات قيمة ثمينة، غير قابلة للتعويض في المستقبل القريب، ولم يتبدّل هزيمةً ثقيلةً مريمة، تملّي عليه إعادة الحسابات بدقة مرة أخرى، وتردعه عن مواصلة أفعاله الموصوفة كجرائم حرب، كما ليس من المؤكد أيضاً أن هذه الضربة قد ضمنت أضعاف قدراته على معاودة استخدام الأسلحة الكيميائية في وقت لاحق، وتجاوز ما يعتبره الغرب خطأ أحمر من جديد، طالما أن العقاب هين لين، كهذا الذي جرى بعد طول أخذ ورد، ويشق الأنفس، بين واشنطن ولندن وباريس. وفوق ذلك لم تكن عواقب الفعل الكيميائي وخيمة، بحسب ما هددت به على رؤوس

غير أن هذه الحصيلة الأولى، المواتية كلياً لأشرعية سفينة الأسد الممزقة، بما انطوت عليه من مكاسب سياسية ومعنوية قصيرة الأمد، لا تشكل إلا جزءاً من الصورة الأشمل، المكونة في خضم تلك الضربة المشتركة بين أهم ثلاث دول غربية وأقواها، بدت في عهد دونالد ترامب أكثر تصميمًا من ذي قبل، في الدخول بقوة على خط الكارثة السورية، واسترداد بعض ما فقدته من أوراق اللعبة التي تم تجييرها بالكامل لصالح روسيا، في زمن إدارة باراك أوباما، الزاهدة في الدفاع عن صورة الدولة القائدة للنظام العالمي، المستخدمة قبالة اندفاعه فلاديمير بوتين، والمجاملة لرغبة الجامحة في الصعود ببلاده إلى مرتبة الدولة العظمى الثانية.

على هذه الخلفية، يمكن قراءة مغزى الضربة الثلاثية التي كان رجع دوّيّها في موسكو أشد هولاً من صدى صوتها في دمشق، وكانت مضاعفاتها لدى الكرملين أوسع بكثير من تداعياتها داخل قصر الشعب في أطراف جبل قاسيون، لا سيما وأن الضربة المنسقة جيداً بين العواصم الغربية الثلاث انطوت على تحدي محسوب بدقة، ليس لنظام الأسد المتهاك، وإنما لغطرسة بوتين ونزعته الإمبراطورية، وشكلت، في حد ذاتها، خرقاً لحائط الصد الروسي الذي بدا منيعاً للغاية، إن لم نقل اجتيازاً مباشراً لحاجز التحسب والتردد الذي استبد بالغرب سبع سنوات من الوقت، وجعل منه لاعباً ثانوياً، قليل الحيلة، على الجغرافيا السورية.

وفيما راحت ماكينة إعلام الأسد تتحدث بزهو عن عدوان ثلاثي فاشل، وتستحضر صورة العدوان الثلاثي ضد جمال عبد الناصر عام 1956، و تستلهم مجد صموده آنذاك، راحت الدعاية الروسية تستعيد إلى الأذهان، من ماضٍ لم يمض تماماً، ذكريات المواجهات الخائبة مع الغرب، وتجتر آلام سقوط الاتحاد السوفييتي السابق بحسرة شديدة، وتتهم الغرب المتآمر بالسعي، من دون هواة، لتحجيم مكانة ثاني أكبر قوة نووية، ومحاصرتها أطلسياً، وتفشيل دورها العالمي دولة لها حق الفيتو (النقض) في مجلس الأمن الدولي، وحدث ولا حرج عن فرض العقوبات الاقتصادية .

في مقابل ما تملك أرباب نظام الأسد من مشاعر بالاستحقاق، وحس بالجدرة المفاجئة، وما ساد لديهم من استخفاف شديد بضربيٍّ عسكريٍّ بدت طائفة، أدرك الدبلوماسيون والإعلاميون الروس، في قرارة أنفسهم، ما لحق ببلادهم من إهانة فاسية جراء هذه الضربة التي سبق لهم أن حذروا، مراراً وتكراراً، من عواقبها الوخيمة. ومن غير مكابرة، استوعب الجنرالات المتقاعدون الروس، على الفور، حقيقة أنها كانت ضربة موجهة إليهم في المقام الأول، وأنها مرت تحت أنوف قواتهم الجوية الفضائية، بل وأمام عيونهم المفتوحة، فجرحت الكبرياء الروسي بفظاظة، وأصابت القيصر ذاته، وهو الذي كان قد خاض لتوه انتخاباتٍ رئاسيةٍ ضاربةً ضد نفسه، واعداً باستعادة الأمجاد السوفييتية الماضية.

ومع أن إسرائيل سبق لها أن اخترقت نظام الدفاع الجوي الروسي عشرات المرات، وضربت جهاراً نهاراً موقع سوريا وإيرانية حصينة بلا عدد، إلا أن موسكو لم تشعر بالحرج، ولم يتملكها الانزعاج ذات غارة، حتى أنها كانت تبرر تسامحها مع الذئاب الإسرائيلية قائلة إنها معنية بالحرب ضد "الإرهابيين" لا الدفاع عن الأسد، فيما بدت في أعقاب الضربة الغربية هذه بالغة التحسس، شديدة الارتباك، عميقه الإدراك أنها هي المستهدفة هذه المرة، ليس في نطاق الدور السياسي المهيمن على مقاليد الحالة السورية فقط، وإنما أيضاً في إطار كفالة منظومة الدفاعات الجوية، وتقنيات الصواريخ المضادة التي لم يسبق لها أن وضعت موضع الاختبار الميداني، ولو مرة واحدة.

وقد يمر وقت قصير، في أعقاب هذه الضربة التي أحسب أنها قد زلزلت ثقة الروس بأنفسهم من دون ريب، حتى يطرح بعضهم السؤال: "ماذا نفعل في سوريا بحق السماء؟"، إذا كان مقدراً لمثل هذه الضربة الخفيفة، بالمعايير العسكري المجرد، أن توقف صعود موسكو الدولي، ولو على نحو تدريجي بطيء، وأن تطيح معظم ما تم إنجازه من مكتسبات ميدانية ، وهي مكتسبات لم تحول إلى إنجازاتٍ سياسية بعد، بما في ذلك مسار أستانة ومؤتمر سوتشي، ومناطق خفض التصعيد، والتحالف

الثلاثي مع تركيا وإيران، وغير ذلك من جهودٍ بدت فيها الدبلوماسية الروسية، حتى أمس القريب، تمتّطي ظهر حسانٍ لا يشقّ له غبار.

وعليه، يمكن الاستنتاج، من دون تعسف في القراءة، ومن غير تعجل في استشراف الممكّنات التي حفلت بها هذه الضربة غير الموجعة لنظام الأسد، أن روسيا المصابة في صميم دورها الإقليمي لم تعد بعد اليوم في ذلك الموضع الذي كانت عليه من قبل، حين تمكّنت، في غفلة من الغرب، من امتلاك كامل أوراق اللعبة السورية من دون منازع تقريباً، وأقفلت مجلس الأمن الدولي بـ 18 فيتو، وصارت ربة البيت وصاحبة الحل والعقد، الأمر الذي يستقيم معه القول إن هذه الضربة المليئة بالمفاراتات الفارقة، والتي قد لا تكون الأخيرة بالضرورة، قد عزّزت وضع الأسد من جهة أولى، ولو بصورة مؤقتة، وقوّضت، في الوقت نفسه، مكانة بوتين، إلى أجل غير معلوم، من جهة مقابلة.

المصادر:

العربي الجديد